التواصل من خلال السخرية وتوظيف الحيوان في أشعار العدواني

د.صادق ابراهيمي كاوري

الأستاذ المشارک بجامعة آزاد الإسلامية/فرع آبادان– إيران

((Irony and use of animal symbolism in Aladwani poetry))

Abstract:

Ironic style recourse the poet when he feels no point talking hard and so take procedures indirectly and makes satirical poetry intended mockery and ridicule of others and is the method of Current and old in the Arabic literature. Aladwani convey his poetry was printed an accurate sense of honest and proper taste and a strong spirit. One of the main topics that came out Aladwani poetry fiction on the language animals, and has reached Showqi so before art maximum whatever is available from evolution in Arabic to this day, we find these poets will promote stories on the language animal, who shall poet displays live images of a particular animal as a symbol of people's lives , than to find the meaning of congenital connected spirit of his time and events (such as alerting the national consciousness when peoples, patriotism, and critique social customs bad .... etc.) and often accompanied by cynicism time or acclaimed We are here at hand, has looked Aladwani for this type of poetry simulators so it Showqi , which in turn was Imitation famous French poet (La fontaine) in this type of modern Arabic poetry.

Key words: irony, animal, Aladwani.

– ومضة خاطفة عن أحمد مشاري العدواني:

رائد من رواد الأدب والفكر في الكويت. ولد عام 1922. أنهى دراسته الثانوية في المدرسة المباركية، ثم سافر إلى القاهرة والتحق بجامعة الازهر بالقاهرة عام 1939 وتخرج منها عام 1949م. اشتغل بعد عودته مدرسًا للغة العربية في ثانوية الشويخ، وأسهم في تأليف ومراجعة مناهج اللغة العربية. شارك في تحرير مجلة البعثة وعمل مدرسا في المدرسة القبلية[1].

هو شاعر وأديب وعلم من أعلام الفكر والثقافة في الكويت، شارك في تأسيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب. تم اختياره من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة ممثلا عن الكويت في عام 1972. هو صاحب ومؤلف كلمات النشيد الوطني لدولة الكويت.

«أحمد العدواني، شاعر الكويت، صاحب التجربة الخصبة عبر ثلاثين عاماً، هي أزهي مراحل التطور الأدبي لهذه البقعة من جزيرة العرب. فالذين يعرفون الشاعر عن قرب لابد أن يروا في هذه الكلمات ما هو أكثر من ظاهرها، إنه القلق الفني العميق الذي يجعل الشاعر يجري أشواط عمره ... »[2].

نحن لا نريد أن نسهب في الكلام عن حياة العدواني أو ندرس جميع ميزات شعره بالتفصيل ولكن نحاول أن نأخذ القارئ تدرجا إلى الغاية المرجوة من كتابة هذا المقال، فنقول: لم تكن حياة العداوني التي امتدت من أوائل العشرينيات حتى بداية التسعينيات غير ومضة خاطفة بحساب السنوات، ولكنها كانت بحساب المتغيرات التي أصابت العالم العربي عريضة عميقة مضطربة بشتي التيارات التي تتشكل في حدودها القصوى، متدابرة متنافرة في شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية

1- أنظر: **الرومي**: الحركة الشعرية في **الخليج، 1999، ص 378**.

2- حسن عبد الله، محمد: الشعر والشعراء في الكويت، 1987، ص ص 118-117.

والاجتماعية والفكرية، فقد كان العالم العربي نهباً للاستعمار الغربي، فانتفضت فيه حركات التحرر، حتى استطاع أن يحطم أغلاله ويركز ألوية حريته، وتفجرت أشد أراضيه جدبا بالذهب الأسود، وتجاوزت التغيرات أنماط الحياة الاقتصادية، فشملت كل جوانب الحياة الاجتماعية والفكرية، وقد شهدت فترة مابين الحربين العالميتين تطورا هز العالم العربي في أعماقه، ثم جدّت عوامل مختلفة بعد الحرب العالمية الثانية أتاحت للعالم العربي أن يستقبل تيارات فكرية من الشرق والغرب، وأن يتطلع لمواكبة الوثبة الحضارية في العلوم الطبيعية والإنسانية والجوانب التقنية، ولكن وسائله كانت قاصرة في معظم الأحيان عن بلوغ التطور الحقيقي الذي يتناغم مع المد الحضاري. وكانت بعض العوامل التاريخية تحول بينه وبين الانطلاق، بل تثبت عوامل التناقض في بنيته الأساسية حتى نجد فيه الناقة إلى جانب الصاروخ، والاختلاف حول شرعية التصوير الفوتوغرافي إلى جانب نقل الصور بالأقمار الصناعية، وكل ذلك – بلاشك– يشكل في نفس المثقف العربي صوراً للحياة.

ومن تلك الصور التي لها طابع خاص في شعر العدواني، هي الصور التي لها طابع ساخر حيث تقف السخرية في رأس الأساليب الفنية الصعبة، إذ إنها تتطلب التلاعبَ بمقاييس الأشياء تضخيماً أو تصغيراً لاسيما عند استخدام هذا الفن في توظيفه لعنصر الحيوان، وقد أخذت حيزا يلفت النظر في أشعار العدواني.

– السخرية في شعر العدواني:

السخرية أسلوب يلتجئ إليه الشاعر عندما يحس لا جدوي من الكلام الجاد والمباشر فيتخذ طريقاً غير مباشر ومضحك يجعل المقصود من شعره أضحوكة وسخرية للآخرين وهو أسلوب رائج وقديمي في الأدب العربي وقد استخدمها العدواني كشعراء آخرين معاصرين الرصافي وكنزار قباني و... ولا شك أن سخرية العدواني في سبيل الحرية كانت ناجحة وقد عبر عينها بأشكالها المتعددة جهرا ورمزا كما نري في قصيدته

(مدينة الأموات) و(اعترافات عبد) التي تعبر عن الحرية في سخرية مرة، فالعبد- وهو بلا شك الإنسان الذي فقد الحرية منذ نشأت – لم يعد يعرف معني الحرية، بل إنه يخشاها، ويري أن يظل مصيره في أيدي سادته، لأنه إذا ملك مصيره لم يعرف كيف يتصرف به.[1] فيقول:

في أعماقي
ظل أسود كالديجور
منذ ولدت أعانيه
وأجاريه
يحملني كالمسحور
للسيد في كل مكان
يا سادة يا أربابي
هاكم سرا
أنا أكره أحيا حرا
وأحب حياة العبودية
الحرية ترعبني
تقذفني في جو فراغ
يغتال كياني
ويطوّح بي في مهواة
فيدور بها رأسي
يا ويلي
حين أقابل وحدي

1- حسن عبدالله، محمد: الشعر والشعراء في الكويت، 1987، ص ص 152-150.

وجه مصيري
وأحس بثقل المسئولية
يا سادة يا أربابي
قولوا لدعاة الحرية
فليبتعدوا عني
أنا ضد العتق
أنا مخلوق للرقِ

ويستمر العدواني على هذا النمط بما يبوح هذا العبد الفاقد لحريته في اعترافاته بأن عقيدته الثابتة أن الحرية هي للسادة وحدهم، أما الرعاع فالعبودية نصيبهم، وليس لهم أن يطلعوا إلى ما هو حق مطلق للساده، يقول:

مهما لاقيت من السيد
سأظل له عبدا
يهتك عرضي
يسلخ جلدي
يطعنني بالخنجر
يصنع مني سيفا
أو كرباجا
يضرب عبدا يتحرر
وأنا ملك السيد
وأقر له بالملكية
يا سادة يا أربابي
الحرية عزم وإرادة

الحرية ما خلقت لي
بل خلقت للسادة
فأنا مهما نلت من الرفعة
والصيت وطيب السمعة
وتعاظم قدري
بالمال
بالمنصب بالعلم
بالجاه وحسن الفهم
سأظل مدي عمري عبدا
يخشي خطر الحرية[1]

استخدم العدواني في قصيدته هذه الطريقة المعروفة ب (Black humor) التي تبين الجانب المأساوي المحزن المضحك في آن واحد حيث نرى أن سخريته ترفد بجملة من الخصوصيات، تتعلّق بالتعدد الدلالي وإمكانية تنوّع التأويل، بالإضافة إلى أثر الطرافة في المتلقي، والتشويق الذي هو أحد خصائص شعره بمختلف أشكاله، غير أنّه يبرز بشكل أكبر في السخرية التي يستخدمها في أشعاره. لهذا نرى تعدد الصور الساخرة التي تصور الحرية مخفية لمن اعتاد العبودية والهوان، وذلك في إطار علاقة الحاكم بالمحكوم، كما تصور ما ينعم به العبد الذي فقد إرادة الحرية، فغابت عنه مقومات الرجولة، من ظواهر الإنعام الشكلية الزائفة، يقول:

تموت بالمجان علي أحدية السلاطين
ويرفل الخصيان بحلة النياشين

1- الزيد، خالد: **أدباء الكويت في القرنين**، 1981، ج2، ص ص 433-435.

قد نجد هذه الكلمات قد تكررت على طريقة نزار قباني الساخرة (هوامش على دفتر النكسة)، حيث يقول: في زمن الزيت والكاز / يطلب الشاعر ثوباً/ وتَرفل بالحرير قحاب/ فالعدواني هنا يستخدم (paradox) حيث تمنح النياشين للخصيان لا للشجعان لكي يضع بسمة محزنة أخرى على فم قارئه. ويعبر في صورة أخرى عن هوان الإنسان في ظل حكم القهر، ذلك الهوان الذي لا يجعل لصاحبه وجودا ويسقط من ذاكرة الزمن، يقول:

وجوهنا ليس لها ظل علي موائد القصور
أسماؤنا ليس لها محل إلا علي شواهد القبور
تهملنا روزنامة الزمن
ونحن فرسان الوطن
ونعمت الفرسان[1]

ومادام الإنسان فاقدا حريته فهو لا يملك إرادته، وقد تأكد بذلك فقدانه قيمته الإنسانية ووجوده الفعلي.

_ توظيف عنصر الحيوان في شعر العدواني:

استخدام وتوظيف عنصر الحيوان في الأدب عامة وفي الشعر خاصة ليس بأمر جديدٍ في الأدب العالمي وفي أدبنا العربي ولو راجعنا النصوص القديمة منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر لوجدنا أن الأدباء قد وظفوا هذا العنصر في أدبهم ونحن لو أمعنا النظر في القرآن الكريم لرأينا هذا العنصر قد أُستخدم في القرآن في مواضع كثيرة وخذ هكذا حتى تصل إلى ابن المقفع الذي يُعد الرائد الأول في هذا المجال في كتاب «كليلة ودمنة» إلى أحمد شوقي في قصصه المنظومة عن الحيوان حتى شاعرنا هذا.

1- العدواني: الديوان، ص ص 28-27.

ومن أبرز وجوه التصوير في شعر العدواني توظيفه عنصر الحيوان توظيفا ساخرا يؤكد به نظرته إلى الحياة، فهو يسخر من أعداء الحرية والتقدم فيصورهم على شكل أسراب ذباب تحاول عبثا الوصول إلى مكانة السحب، قائلا:

لله أسراب الذباب

هبت لتصطاد السحاب[1]

ويقول في موضع آخر مؤكدا على موقفه السابق:

ابتسمي إن الذباب شأنه الطنين

مذ خلق الله الذباب

فابتسمي إذا سمعت للذباب ضجة

على الرياح والنجوم والسحاب

فإنها زمزمة الذباب

كذلك نراه يشبه أعداء الحرية والتقدم بالخفافيش، يقول:

ابتسمي إذا تراءت للخفافيش ظلال

تملأ الرحاب

وتلعن النور وأهل النور في كل كتاب

ابتسمي إن الخفافيش ستختفي غدا

فالفجر بالأبواب

ويصور العدواني الوهم المسيطر على عقول الناس ووجدانهم شبحا مخفياً لا يعرفون كنهه، مثلما فعل جلال الدين البلخي (مولوي) في ديوانه الشهير (المثنوي)

1- العدواني: الديوان، ص 170.

عندما أراد أن يصور أوهام الناس فجاء بقصة الفيل الذي وضع في غرفة مظلمة فأدخل الناس عليه فأصاب كل منهم جهة من الفيل فتوهمه شيئا[1] فيقول:

قال بعض هو فيل

فر من قيد الإسار

.....

ورآه بعضهم ليثاهصورا في إزار

.....

وأناس زعموه من تنانين البحار

.....

ورآه غيرهم خلقا مسيخا في الديار

عندها يتجرأ أحدهم فيكشف عن الستار ليرى حقيقة هذا الشبح المخيف فيتفاجأ بما يراه:

هتك الستر عليه فبدا رأس حمار[2]

ويصور الشاعر اضطرار الضعفاء للتملق وحجب الحقيقة وتزييف الواقع، بتقديم نصيحة ساخرة للإنسان الحر، يقول فيها:

إذن فانعق مع الغربا ن في الحلة والرحلة

وقل للفأر يا نمر وقل للفيل يا نملة[4]

ونراه يصور الشعب قطيعا من الشاء وحكامه رعاته، وقد حرموه كل شيء، وغفلوا عنه، حتى أن الأعداء قد أحاطت به، وأحدقت به المخاطر، يقول:

رعاة الشاء في دهم الروابي أفيقوا فالحمى وشك انتهاب

توسدت الثعالب جانبيه ولابت حوله طلس الذئاب

.....

1- أنظر: فروزانفر، بديع الزمان: شرح مثنوي معنوي، 1376، ص265.

2- الديوان، ص ص 182-180.

رعاة الشاء ويحكم أفيقوا لقد جل المصاب عن التغابي
دعوا أهواءكم وارعوا شباها أسأتم رعيها بين المرابي
حميتم دونها خضر المراعي فراحت ترتعي شوك اليباب
وأغلقتم مشارعها عليها فهامت تستقي لمع السراب[1]

ويعود للقطيع في صورة أخري مبشرا إياه بأن عَدُويه الذئب والجزار قد تنسكا:

بشراك يا قطيع
بعصرك الزاهي البديع
الذئب والجزار قد تنسكا
والناب والسكين أصبحا لكا
فالآن عش كما تشاء يا قطيع
من دون أن تخاف مدية الجزار
أو ناب ذئب أطلس غدار

ويستمر العدواني في قصيدته بعد إمعان في عبثية تصويره للقطيع المسكين ويصل إلى غايته لكي يسخر من النتيجة الحاصلة والاكتشاف الأكبر أي تلقين الطرف المقابل بأنه خلق أن يكون عبدا مقادا وهو خلق للسيادة:

أما علمت يا قطيع
أن أساطين الزمان
وساسة الدولة والسطان
اكتشفوا
بعد ضلال حير الأفكار
وزيف التاريخ و الأسفار

1- الديوان، ص ص 214-213.

اكتشفوا

أنك قد خلقت للسيادة

وأنك الموعود بالقيادة[1]

ويستخدم الشاعر الجمل رمزا للإنسان العربي، وتكمن في هذا الرمز (كما هو معروف عن الجمل) دلالات الصبر وقوة الاحتمال، ولهذا يحثه الشاعر على التماسك وعدم اليأس، برغم كل ما يتعرض له من محن، يقول:

إياك يا صديقي يا جمل

إياك أن تيأس أو تلين

إياك أن تكون مثل آخرين

قد عكفوا علي الطلول

يندبونها

أو أطفأوا شموعهم

وخرجوا إلى الرياح

يلعنونها

كلا وأنت رمز الصبر يا جمل

.....

إياك أن تكون مثل آخرين

أدمغة قد نزعت مخافها

محشوة بالرمم الملفقة

تفوح من أنفاسها رائحة

تعرفها المزابل المحترقة [1]

1- الزيد: المصدر نفسه، ج2، ص ص 443-440.

وهو يصور طاعة العبد لسيدة تلك الطاعة العمياء بجعله كلبا أو قطا:

أنا بالسيد لا أكفر
السيد ما أعظمه
ما أكرمه
هو ربي
وله إكباري
وله حبي
حتى لو أخرجني قسرا
من طاعته
وحمايته
سأعود إليه
دون شعور مني
أتعبد في محرابه
وأروح أقبّل نعليه
كي يرضي بي
كلبا أو قطا يُقعي
بين يديه[2]

ويصور الفارغين المتصدرين المجالس بأنهم طواويس في زهوها بأنفسهم وانتفاخهم وتمثيلهم غير واقعهم، يقول:

لا يغرنك معشر في صدور المجالس

1- الديوان، ص130.

2- الديوان، ص ص142-143.

للطواويس غيرة منهم في الملابس[1]

كما يصور الخانعين الجامدين الذين فارقهم سمو النفس، فامتلأ وجدانهم ظلاماً، بأن ما يجول في ضمائرهم ليس إلا خنافس في بحيرة من قار!

الفجر عند ربوعكم رحل

أطل في مغاور النفوس فرأي

خنافس الأسرار

في بحيرة من قار

فضم أثواب الضياء ورحل[2]

ويرمز الشاعر للمجد والماضي الجميل الضائع بالطلل، وهو يقف عليه مثل وقفة الشاعر الجاهلي يستحضر الماضي الذي لن يعود، ملتمسا عنده السلوان، ويحكي له بعض ما رأي من تحولات تبعث علي الأسي والألم، يقول:

... وشاهدت الرياض وحولها للسوس أو كار[3]

ويقول:

... فبالأمس تمهلت لدي كوم من الأطلال

وقد عششت الغربان فيها والعناكيب[4]

ويرمز الشاعر بالعنقاء، هذا الطائر الخرافي الذي يستحيل صيده للماضي الجميل الشامخ الذي شوهته يد البغي وجعلت من هذا الطائر سلعة يلتف حولها المشتبرون، يقول:

1- الديوان، ص 105.

2- الديوان، ص 117.

3- الديوان، ص 80.

4- الديوان، ص 84.

فإذا العنقاء تغدو سلعة

ولها سوق وناد يسهر[1]

ويوظف الشاعر«المعزة» في صورة عبثية قوية الدلالة، فهو لا يكتفي عجفاء، ولكنه يخلع عليها كل صفات التسلط والاستبداد والشره، يقول:

معزتنا العجفاء تكره الناطور

تزعم أنه ذئب عقور

يلبس صورة الإنسان

فليبتعد إذن عن ساحة البستان

ويترك الأمر لها

تلعب بالبستان مثلما تشاء

معزتنا العجفاء

طاحونة شهواء

شرهة الأضراس والأمعاء

ما شبعت يوما ولن تشبع آخر الأيام

من موائد الطعام

روح الجراد في ضميرها المسعور

لا تبقي ولا تذر

تلتهم الزرع و تشرب المطر

حتى منازل السمر

عاثت بها فانقبلت خرابة صماء

معزتنا العجفاء أصبحت

1- الديوان، ص 50.

ذات طباع شرسة

وشهوة مفترسة

كم مضغت أثوابنا

ولحست جلودنا

وكلما مرت علي أشيائنا المقدسة

تبرجت فيها

وكشفت عورتها لنا بلا حياء

.....

معزتنا العجفاء

الكون كله في شرعها

عشب وماء: [1]

ومن الصور النادرة التي يوظف فيها الشاعر أحمد العدواني الحيوان ليصور خضوع الشعب المغلوب علي أمره لحاكمه، واضطراره لمنافقته ومداهنته، وصفه للأفكار بأنها دجاجة تبيض حسب الحاجة، أو حسب ما يُطلب منها، ولا ينسل منها غير الأفراخ التي اعتادت المسكنة، وأنها تعدا نفسها للذبح دون مقاومة، ومن بيضها الأقلام المسمومة، والأوثان المنصوبة، وهي إن حاولت الظهور بمظهر القوة لتتحول من دجاج إلى صقور، كان طعامها لحم المساكين، يقول:

1- الديوان، ص ص 73- 75.

أفكارنا دجاجة

في كنف السلاطين

خراجة ولاجه

في قُنّ أصحاب الملايين

وبيضها يثمر حسب الحاجة

أفراخها مدجنه

تلقط حب الذل والقهر بمسكنه

حتى تري خلاصها إخلاصها

للذبح بالسكاكين

أفكارنا دجاجة

تبيض حسب الحاجة

فتارة تبيض قلما مسمها

وتارة تبيض صنما

وتارة تكون كالشواهين

لكنما طعامها لحم المساكين[1]

وتبدو قصيدة الشاعر (بقايا جيفة) ذات طابع تعليمي، شأن حكايات لافونتين وشوقي للأطفال، وإن كانت لا تخلو من تصوير يهدف إلى تحبسيهم عبودية المحكومين الذين يتفانون في خدمة حاكميهم، حتى بعد أن يفقدوا عناصر قوتهم، يقول:

اعتل يوما ملك السباع فصار لا يقوي علي الصراع

فانزعجت من سقمه الضواري وخشيت مغبة العثار

1- الديوان، ص 46-48.

وانطلقت تسأل عن علته وتبسط الأيدي إلى خدمته

فيستمر العدواني قصيدته حيث يظهر سبع فقيه لا مثيل له بينهم في التفكير فيجد حلا وهو تقسيم العمل بين الحيوانات مشاركين تهيئة طعام الملك حتى يستعيد الملك صحته فيقبل الجميع باقتراحه حتى يصل الدور للضبع و... والنتيجة تكون بعد أن يتضور الملك جوعا بسبب تأخير الضبع أن يظهر حاملا معه جيفة:

واضطرب القوم فمن معتذر للضبع، أو من لائم مستنكر

إذ أقبلت عليهم لهيفة حاملة لهم بقايا جيفة[1]

«إننا نجد لدينا حصيلة مناسبة من الشعر القصصي، وهو عند الشاعر أحمد مشاري العدواني أوضح نهجاً في تركيبه، واتباعاً لمنهج شوقي في بناء الحكاية الشعرية علي لسان الطير والحيوان.

العدواني ينظم حكاياته مستهدفاً المبادئ الأخلاقية و القيم التربوية، على طريقة شوقي، الذي استهدي بدوره طريقة الشاعر الفرنسي لافونتين». [2]

– أهم النتائج:

في النهاية نستطيع القول أن السخرية العدواني ترفد بجملة من الخصوصيات، تتعلّق بالتعدد الدلالي وإمكانية تنوّع التأويل، بالإضافة إلى أثر الطرافة في المتلقي، والتشويق الذي هو أحد خصائص شعره بمختلف أشكاله، غير أنّه يبرز بشكل أكبر في السخرية.

أضف إلى ذلك أنّ السخرية التي تعتري شعر العدواني من بدايتها إلى نهايتها فحسب، فالعدواني من قبل البداية (العناوين)، فغالباً ما يدعوك عنوان القصيدة إلى الضحك من قبل أن تقرأ القصيدة أو تعرف مضمونها حيث نستطيع أن نطلق عليها

1- الزيد: المصدر نفسه، 1981، ج2، ص 419.

2- حسن عبدالله: المصدر نفسه، 1987، ص36.

اسم (عناوين ساخرة) ومن عناوينه الساخرة (رأس...) و(بقايا جيفة) و(اعترافات عبد) و...

لقد حاول العدواني أن يترك بصمةً خاصة به على صعيد الأدب الساخر، وقد رأينا من خلال ما تقدّم من دراسة للسمات الساخرة التي ميّزت شعره الساخرة، واستطاع آن يأتي على صعيد أغراض السخرية المتنوعة، والشكل الفني للقصيدة الساخرة.

لقد استطاع الشاعر توظيف عنصر الحيوان ليكون أحد العناصر الفنية الساخرة في شعره. غير أنّ العنصر الذي يُعدّ أكثر بروزاً في أسلوبه هو اللغة الساخرة؛ تلك اللغة التي كانت عاملاً مشتركاً بين عناصر السخرية لديه كلّها؛ ونؤكّد هنا على اللغة (الساخرة) على وجه التحديد.